(11)

فلسطين كمان وكمان

كان هناك شخص أصلع ممتلئ الجسم يلمع واجهة دكانه. كان قد شمر كمي قميصه عن ساعديه وكان يعمل بنشاط ولكن بغير فرح. وكان المارة بفلسطين - أحيانا بين بقايا الانقاض - بشيء من الملل وبرؤوس منكسة. وفجأة توقف صاحب الدكان الأصلع ليرى مجموعة شبان وشابات من الإسرائيليين ببناطيل قصيرة يسرون متضاحكين ضاجين ضمن موكب الناس الصامت ولدى اقترابهم تناول سطل الماء وجلد المسح ودخل الدكان. وكان هناك رجل وحيد يجلس على ناصية مقهى كان يراقب المارة والسيارات بغير اهتمام. مات الافق في عينيه. لا شيئ يعنيه. حتى منظر الإسرائيليين البشع في الشارع لم يكن ليحرك كوامن نفسه. مثلت له عيناه وجود تلك الوجوه الطارئة، الإسرائيليين كانوا يعتمرون - بشيء من التحدي المعلن عن نفسه - تلك القلنسوات المستديرة التي يشتهر بها متدينو اليهود. تناول الرجل الوحيد رشفة صغيرة من فنجان قهوته، وغاص بصره في السائل الأسود.لم يعد يسمع هدير السيارات ولا ضجيج الاقدام. غاص أكثر. اليهود اختفوا من الشارع. غابت الاصوات البشرية الدافئة. اخذ بصره يجوب الشارع يمينا ويسارا. والرجل الاصلع صاحب الدكان لم يعد له وجود. واجهة الدكان محطمة. الانقاض تملأ كل مكان. مبان رائعة هي صورة حضارة متفتحة وبؤر نشاط سالف تفقر الآن أفواهها، تتدلى أمعاء الطوابق العليا فوق السفلى ببشاعة، شيئ ما حدث فغير نظام الاسمنت والحديد، قلب عالي الدنيا سافلها. قوالب الأبواب والنوافذ تجردت من زجاجها، انحنت في وجيعة. امتزح

الأزرق بالأحمر بالأصفر وتلون الجدران بسواد الحرائق التي انطفأت للتو، فيما تدلت اللافتات الملونة واخذت تئز وتئن كما الندبات.
تطور المشهد المهول. غير الرجل ساقا فوق ساق. أصابع يمناه كلها تشد معا على فنجان القهوة. تعبير رعب على وجهه، ملابسه مغبرة. يحمل الآن طفلة صغيرة بذراع، وصرة بيد. يركض ويركض بكل ما أوتى من قوة. بكل القوه التي في ساقيه. خلفه غير بعيد تركض امرأته وقد تجمع تعبير الهلع في حفر وجهها، تركض وتلاحقه بنظرها والمدافع تقصف، والطائرات الاسرائيلية تزمجر وتنبعث حممها. جهنم فتحت ابوابها، والناس يركضون وقلوبهم تطير أمامهم. المسافة بين الرجل وامرأته تتقلص وتتباعد، والاجساد تسبح في الجو، انقلبت هلامية. المسافة بينهما فاصل موت وحياة علاقة حب معلقة بإشارة استفهام زرقاء.

كان الجميع يركضون مذعورين، يلهثون، يتنادون. الكل يسعى للخلاص بجلده، لإنقاذ لحمه وعظمه من تثقيبات الشظايا. وحدهم الرجال المناضلون كانوا متمركزين وقوفا شامخين في زوايا الطرق، حول مدفعهم، يلقمونها ويطلقون، يصلون طائرات العدو نارا حامية، وكأنما لا يعنيهم هدير صام، ولا انفجار ولا شظايا. كانوا قد اجتازوا برزخ الخوف وتخلوا عن قلق الحياة والموت.
يتوقف الرجل ليدفع بامرأته تحت بوابة نصف مهدمة " هنا ملجأ ". لا يعرف كيف رأى الكلمتين المنقذتين " هنا ملجأ " المرأة اندفعت واندفع ورائها. هبطا عددة درجات وجوه مصفرة. وجوه مزرقة، عيون أطفال وسيعة. شعور نساء منكوشة. تعال، تعال. ادخلي، ادخلي. ويوسع الحشد في الملجأ مكانا للناجين من الموت وهم يرددون الصهيوني المجنون.

الطفلة تبكي، تأخذها الأم وتضعها بين ذراعيها، مع كل قصفة مدفع تبكي، ومع كل قذيفة تنفجر ترتعد الأطفال في الملجأ يبكون

ساعات، وتمر الساعات كأنها دهرا، القلوب راجفة، الطفلة الآن ترتعش باستمرار عيناها مالتا إلى الوراء، تنفسها بات متلاحقا، وعيها صار موجة غائرة وسمكة غاطسة في محيط متلاطم، النوبة تستمر.

القصف المتواصل لا يدع مجالا للتأسي في الملجأ المزدحم عيون الجميع معلقة في السقف المنخفض، متى سينقضي عليهم جميعا؟ وعارف أو متعارف يردد باستمرار واذان تلقطان اصوات القصف: هذا قصف طائرة. هذا دفاع جوي. والناس يضمون اولادهم ويستمعون، يرفعون الادعية إلى رب السماوات الذي ترتفع مملكته العظيمة فوق الطائرات

هدير رهيب يقترب. انفجار. اثنان. الثالث هوب! الدنيا تنفجر. ضغط الانفجار يقذف المحتمين بالملجأ على الجدران تتبادل مواقعها وتلتطم كلها بالجدران التي تفتت بدورها. طبقة كثيفة من الغبار تمازج الدم واللحم العاري الذي فقد جلده وتفزر.

الصمت. تساقط آخر الاحجار المهدمة من مواضعها. والصمت. الرجل يتحسس أجزاء جسده. يتحرك، يزيح كتل الاشلاء البشرية والاحجار وكتل الاسمنت ويتحرك. حين ينجلي الغبار تبحث عيناه المختنقتان بقلق. الزوجة. البنت. الصمت. اجساد واشلاء متمازجة. ملجأ الناس صار مقبرتهم.

عاد وحيدا. عاد كما كان حين بدأ حياته موظفا في تلك الوزارة الحكومية الاولى التي اشتغل فيها.

مات ابوه ثم امه فقد ابنه اليافع الذي ذهب ليأتي بالخبز فأردته رصاصة جراء القصف الإسرائيلي. لقد صبوا الإسرائيليين حقدهم المجنون على فلسطين، قنابل عنقودية وفوسفورية وانشطارية. تسميات تذهب بالعقل ترسانة اصحاب العنجهية تحتوي كل مستجدات

أدوات الدمار، كل ما تفتق عنه العقل البشري الخلاق من وسائل الفتك.

تلك اياما عشناها ومازال نعيشها، يموت فيها الناس ويتيتم الأطفال وتترمل النساء وتمتلئ المستشفيات وتزدحم سلال النفايات بقطع الأيدي والارجل المبتورة. سحقا للموت في كل صوره، ولكن رغم ذلك، كانت الحياة تسير والآمال تتجدد بالعودة، كانت المحلات تفتح، والدكاكين تبيع وتشتري وساعة الوصول إلى العمل الثامنة.

سرحت العينان إلى بعيد وقد عاودتهما مسحة أسى، فلسطين يا فلسطين. الزمان الذي انقضى والحياه الحلوة. بهجة العمل وروعة الكفاح. فلسطين التي كانت شعلة ولم تكن لحما، ياله من غياب! هل ماتت فلسطين كما يموت الإنسان وحبة القمح؟ مجبولة أرضها بالحقد ونزعة التسلط، اشتعلت مثلما يشتعل الربيع. ثم خمدت فجأة منهارة فوق الآلام والدموع. اعطت واعطت ثم كبت مثلمة، مكممه، نارقة، ممزقة، فاغرة لكنها ظلت صامدة، ظلت تقاوم.

الرجل الوحيد يتململ على مقعده، يغير ساقا فوق ساق.

يطول به المقام فيما تتغير من حوله وجوه متجهمة، لا احد يتوقع حضوره، لا أحد يستأخر عودته. يجدد فنجان القهوة، جموع أخرى صامته مرسومة بغيم الموت تعبر الشارع وفلسطين تسبح في فلك جديد، ما تنفك عابقة بنفحات مقاومة لم يشهد مثلها التاريخ.

انها تلبث ماتزال فيما المؤامرة عليها مستمرة.

تلاطم الأوهام والرؤى راس الرجل الوحيد، كلا، فلسطين أم العرائس لن تموت، ستظل تقاوم الطواغيت والكهان الملونين، خلقت احلام قدسية، منارات للمهتدين في الليالي الحالكة.

ستبقى الاحلام حية والمنارات متوقدة متوهجة، وستزقزق العصافير لا محالة، وتنور السماء البلورية من جديد.

نهض الرجل، تنفس الصعداء وسار في اتجاه البحر.